ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 06 / العدد: 01 (2021) ص175-183

وصف التخفي في الذهاب إلى المحبوب بين ابن شهيد والشعراء المشارقة

دراسة تحليلية مقارنة

Describing the Concealment of Going to the Beloved Ones between Ibn Shuhaid and Eastern Poets

Comparative and Analytical Study

أ.د/حسن أحمد علي حيدر

جامعة الملك خالد (السعودية)

haaali@kku.edu.sa

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
23 سبتمبر2020
تاريخ القبول:
12 ديسمبر 2020

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التخفي
- ✓ الذهاب
- ✓ ابن شهيد

الملخص:

هذا البحث يناقش قضية معارضة ابن شهيد الأندلسي لبعض الشعراء المشارقة، ويهدف البحث إلى الكشف عن مستوى معارضته لهم في وصف التخفي في الذهاب إلى المحبوب من حيث المبنى والمعنى والصورة والتركيب، وحاولت الدراسة إثبات ما ذهب إليه ابن شهيد من فرضية تفوقه عليهم، ويظهر ذلك غي الجانب التحليلي الذي قام بع الباحث، واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي للوصول إلى النتائج المرجوة

Article info

Received
23 September 2020
Accepted
12 December 2020

Keywords:
- ✓ *concealment*
- ✓ *going*
- ✓ *Ibn Shaheed*

Abstract :

This research discusses the issue of Ibn Shahid Al-Andalusi's opposition to some of the Eastern poets, and the research aims to reveal the level of Ibn Shaheed's opposition in describing the disguise of going to the beloved in terms of building, meaning, image and composition. From the analytical side, the study adopted the analytical descriptive approach to reach the results.

. مقدمة:

ظل المشرق العربي قبلة للأندلسيين ومثارًا لاهتماماتهم الأدبية والنقدية منذ القرن الثاني الهجري، وكان الأدب المشرقي حاضرًا في أعمالهم الأدبية حتى ألقوا عصاهم في تلك البلاد. ويلاحظ أن اهتمامهم قد تجاوز الإعجاب والتقدير، وتحول إلى شكل من أشكال الصراع والمواجهة والتنافس الحضاري والثقافي والأدبي؛ لإظهار التفوق والتميز والدفاع عن الهوية الأندلسية، فراحوا ينازلون المشارقة وينافسونهم في كثير من منجزاتهم وإنتاجاتهم الأدبية، سعيًا منهم لإحراز تفوق أو تقدم أو غلبة عليهم؛ وذلك ما فعله ابن شهيد الأندلسي في رسالته "التوابع والزوابع" التي غزا من خلالها المشارقة إلى عقر دارهم في رحلة تخيلية، مستهدفًا الشعراء والكتاب، منتزعًا شهادات الإعجاب منهم، في محاولة منه لإحراز التفوق عليهم في معظم تلك المنازلات التي قارع فيها أولئك العمالقة من أدباء المشرق. والنموذج الذي بين أيدينا يندرج ضمن هذا التوجه وينحو هذا المنحى.

وتطالعنا مدوناتنا القديمة بكثير من الأشعار والقصائد التي نسجها الأندلسيون على منوال المشارقة مما أطلق عليه معارضة أو موارده أو تناصًا أو غير ذلك، حيث تباينت المقولات النقدية القديمة والحديثة في تصنيفها وفقًا للمصطلحات النقدية التي تتناسب معها. وهذا البحث يتناول نموذجًا شعريًا أندلسيًا نسجه ابن شهيد على منوال المشارقة؛ نتبين من خلاله إلى أي مدى تصدق تلك المقولات والمصطلحات النقدية التي أطلقت، وما هو الدافع الحقيقي من وراء هذه النصوص التي كانت محل اهتمام الأندلسيين بها؟ وهل نحن بحاجة إلى مصطلح جديد يتناسب وهذا النوع من الظواهر والتجارب الشعرية؟

والمعاني والموضوعات التي تعاورها الشعراء المشارقة فيما بينهم ونسج على منوالها المغاربة الأندلسيون في شعرهم كثيرة، ومنها: "وصف الذئب"، و "وصف الطير المصاحب للجيش في المعركة" و"وصف تخفي الذهاب إلى المحبوب" و "وصف حرارة الشمس في عمق الصحراء" وغيرها. وقد وقع الاختيار على أحدها، وهو وصف التخفي في الذهاب إلى المحبوب.

"وصف التخفي في الذهاب إلى المحبوب"

أورد ابن شهيد في رسالة "التوابع والزوابع" مجلسًا أدبيًا لتوابع الشعراء المشارقة استعرض فيه على ألسنتهم ما تعاوروه من أشعار في "وصف التخفي في الذهاب إلى المحبوب" بهدف إظهار قدراته الشعرية وتفوقه على المشارقة فيما عرضه لهم من أشعار في وصف تخفي الذهاب إلى المحبوب، وهي أشعار لامرئ القيس، وعمر بن أبي ربيعة، وإسماعيل بن يسار. والبحث يتناول هذه الأشعار بالتحليل للمستويات الفنية عند كل شاعر مجيبًا فيه على سؤال مفاده: هل استطاع ابن شهيد فعلًا أن يتفوق فيها على هؤلاء العمالقة المشهود لهم بالفحولة الشعرية، وبخاصة امرؤ القيس؟ الذي نبدأ به حيث يقول:

سموتُ إليها بعدما نام أهلُها سموّ حَباب الماء حالاً على حالِ1

حيث يبدأ امرؤ القيس في وصف دخوله إلى محبوبته، بلفظ (سموت) التي من معانيها العلو والارتفاع، وأراد بهذا الاستخدام رفع شأن المحبوب، الذي رأيناه يحترز فيه بالجار والمجرور (إليها)، للوصول إلى المحبوبة دون سواها، فهذا السمو ليس له هدف إلا زيارة الحبيبة في هذه اللحظة. ويحدد لذلك اللقاء موعدًا زمنيًا، تعاوره الشعراء بعده، لما للزمن من أهمية وعلاقة بالإنسان، وبخاصة عند الشاعر الجاهلي، فيبدأ سموه بعد أن هجع أقارب المحبوبة وناموا. وقد خص الشاعر أقاربها بالذكر؛ لأنهم كانوا يمثلون عقبة كبيرة له تحول بينه وبين محبوبته. وبعد أن حدد امرؤ القيس لحظة التوجه في موعده الزمني المذكور، راح يرسم صورة دقيقة لهذا القدوم المتخفي في جنح الظلام، فشبهه بحَباب الماء الذي قد يكون قصد به أحد معنيين، إما طرائقه، أو فقاقيعه، فإن كان المقصود بالحباب الطرائق فيكون بذلك قد أراد أنه جاء متدافعًا إليها كما يتدافع الماء شيئاً فشيئًا إلى وجهته في هدوء ولطف، حتى صار إلى ما يريد. وإن كان المقصود بـ(الحباب) فقاقيع الماء، فإنه يكون قد أراد خفة الوطء وإخفاء الحركة، وكلا المعنيين غاية في تصوير ذلك الحال من اللطف والرقة وبراعة التشبيه، الذي عُد من التشابيه الشعرية

التي أغرب فيها، وقد قيل إنه من مترعاته التي سلمها له الشعراء، وهو أحد المعاني التي تلم بها خواطرهم، فتختلس منه ما تختلس الألحاظ، وكثيرون قد ألموا به2.

أما ابن أبي ربيعة فقد قال :

وغاب قميرٌ كنت أرجو غيوبَه ورَوّح رعيان، ونوّم سمرُ

ونفضتُ عني النوم أقبلت مشية الـ حباب، وركني، خشية القوم أزور3

حيث أقبل ابن أبي ربيعة على محبوبته، وهو في حالة خوف شديد، يصاحبه حذر مترقب من القوم، ولم يكن في هذا الإقبال آخذا كل استعداده للقاء بمحبوبته، فقد مكث كثيرًا، يترقب نواميس السماء، وخفافيش الأرض، فظل حتى غاب قمر السماء الذي كان يتمنى غيابه، وروح الرعيان، ونام السمار وكل من كان بالحي، ونام هو الآخر معهم، ليس قصدًا، وإنما جراء التعب الذي ناله من طول الانتظار، حيث نلمح هذا في قوله: (ونفضت عني النوم)، وهذا يعني أنه قد نام فعلًا، ثم استيقظ، فهو في حالة مجهدة، فقد انتظر طويلا خروج النهار، ودخول الليل، ونوم السمار. كل هذه المراحل التي مر بها هذا الزمن بمراحله المتعددة وابن أبي ربيعة في مخبئه، وحبيبه بعيد عنه، ومع هذه التغيرات التي صاحبت الليل، سايره القلق والخوف أكثر، فأقبل يمشي مشي الحية، التي لا يُسمع صوت لمشيها، وتكون عادة حذرة عند خروجها من جحرها، وهي صورة لم يكن ابن ربيعة موفقًا فيها كصورة امرئ القيس. وبذلك لا يكون ابن ربيعة بالذي قد أحسن في وصف نفسه، ولا بالذي قد أبدع في وصف تخفيه، إلا أننا نستطيع من خلال هذا العرض السردي القصصي الذي استخدمه الشاعر في قصيدته أن نستشف أنه كان هائمًا وعاشقًا لحبيبه حريصًا على لقائه، وهو ما قاده إلى بذل هذا الجهد المضني الذي شعرنا به، ونحن نتابع أبياته الشعرية، وأصابنا بعض ما أصابه من عناء.

ولو تتبعنا أبياته بعد هذين البيتين لوجدنا أن حبيبته لم تكن مستعدة أو مترقبة لوصوله، وهذا ما نجده في قوله:

فحييتُ إذ فاجأتها، فتولهت وكادت بمخفوض التحية تجهرُ

فقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

ولهذا كله، وجدنا كثيرًا من النقاد يعيبون قوله نتيجة لهذه الحالة المزرية التي أقدم بها على محبوبته، على عظم قدره وتقدمه في هذا الباب، حيث قالوا عن معارضته لامرئ القيس: إنه عارض الصهيل بالنهاق، وقابل العذب بالزعاق، فقال وليته سكت:

ونفضتّ عنّي النوم أقبلت مشية الـ حباب وركني خيفة القوم أزور

فلو أن جملًا زار محبوبة له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن المنقّض للعيون4.

وعمومًا يقترب معنى ابن أبي ربيعة من معنى امرئ القيس، في رسم صورة التخفي، لكنه يختلف عنه من وجوه :

حبيبة امرئ القيس ذات مقام عال ورفيع، وقد تجلى ذلك في قوله "سموت"، وهذا ما لم نجده عند ابن أبي ربيعة.

ابن أبي ربيعة وصف حالته، أثناء ذهابه إلى حبيبته، بأنه نفض عن عينيه النوم، وهذا الوصف دال على ما عاناه من مغالبة السهر ومكابدة النوم ومشقة الانتظار قبل ذهابه إلى المحبوب، ودل ذلك على عدم جديته واهتمامه بأمر لقاء معشوقته، فلو كان مولها بالعشق ومضنى بتباريح الهوى ما غلبه النوم وأخلد إليه. وهذا ما لم نجده عند امرئ القيس الذي كان حريصًا أشد ما يكون الحرص على الذهاب إلى محبوبه من غير مكابدة أو معاناة.

كان امرؤ القيس أقل حذرًا في تخفيه، وذلك نستشفه من خلال قوله: (بعد ما نام أهلها) حيث لم يشترط لذهابه شروطًا إضافية أخرى تبعث على المخاوف وتعوق الذهاب، سوى موعد زمني، وهو نوم أهل المحبوبة، غير مكترث بأي شيء آخر. بينما ابن أبي ربيعة، أغرق في وصفه، وشرط شروطًا كثيرة لذهابه، وهي غياب القمر وروحة الرعيان ونوم السمار، وهذا الإغراق في التحديد، يزيدنا يقينًا بمخاوفه الشديدة، التي تفوق مخاوف امرئ القيس. وهو فرق يعكس ما كان يعيشه الشاعران من حالتي بيئتين اجتماعيتين مختلفتين انغلاقًا وانفتاحًا.

وخلاصة الأمر أن ابن أبي ربيعة لم يكن دقيقًا أو موفقًا في وصف حالة التخفي لديه، ولم يبلغ ما بلغه امرؤ القيس في تصوير هذا المعنى، لكن الشاعرين كليهما قدم تجربة فنية لمغامرة عاطفية، مع بعض الاختلاف في تفاصيل عناصر السرد في تلك التجربة وطبيعتها.

أما إسماعيل بن يسار فقد قال :

ولما تسامى النجم في أفقه ولاحت الجـــوزاء والمرزم

أقبلت والوطء خفيف كما ينساب من مكمنه الأرقم

حيث يحدد الشاعر هنا موعدًا زمنيًا للذهاب إلى محبوبته كعادة الشعراء السابقين، ولم يذكر شيئًا عن محبوبته، فقد انتظر حتى يمضي جزء من الليل، ويظهر النجمان، المرزم والجوزاء5 خاصة، إيذانا باكتمال مظاهر الليل وسكونه، وتوقف الحركة إلا منه، عند ذلك أقبل على هدفه متوشحًا سواد الليل نحو محبوبته. ونلاحظ اقتراب هذا الشاعر - في تحديد المشاهد الكونية موعدًا لدخوله - من ابن أبي ربيعة، ولم يذكر شيئًا من مشاهد الأرض، واثقًا بأن هذا الوقت الذي يكون فيه الكون العلوي على هذا الحال، يكون كل من على الأرض قد امتطى صهوة الليل وهجع، وغط في سبات عميق، فيشفع له سواد الليل بزيارة المحبوب دون متاعب.

ثم يصف وطء قدميه بأنه خفيف في ذهابه إلى حبيبه، مشبهًا ذلك الذهاب بانسياب الثعبان من مكمنه، وهي صورة نلمح فيها مبالغة العاشق في شدة تخفيه وتستره، وانسلاله نحو محبوبته، وهو انسلال حاكى فيه قوة اندفاع الثعبان على فريسته6، وأفصح به عن رغبة قوية جامحة في اللقاء، وفي صورة الأفعى من الإيحاء بالشدة والعنف وقوة الرغبة ما فيها.

ذلك ما كان من المشارقة في وصف حالة التخفي في الذهاب إلى المحبوب. أما الأندلسيون فقد مثلهم ابن شهيد، وهو صاحب هذه المنازلة أو المواجهة الفنية، فطالعنا بقوله:

ولما تمـلأ من سكره فنام ونامـت عيون العسس

دنوت إليه على بعده دنــو رفيق درى ما التمس7

أدب إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سمو النفـس

وبت به ليلتي ناعمـاً إلى أن تبسم ثغر الغـلس

أقبل منه بياض الطلى وأرشف منه سواد اللعـس8

حيث يبدأ ابن شهيد، في وصف حالة التخفي لديه، بوصف محبوبه، فيصفه بأنه قد ارتوى من شرب الخمر حتى ثمل ونام، ونام من كانوا يحرسونه، أو يحرسون الحي من العسس، وقد يكون المقصود بالعسس لصوص الليل أو ذئابه، حينها انقض ابن شهيد، على محبوبه، الذي دل عليه بقوله "تملأ من سكره" بأنه كان على جانب من رفه العيش وبذخ النعيم، فمشى مشيًا خفيفًا، حتى اقترب من محبوبه الذي كان متلهفًا إلى لقائه. ويلمح من قوله :(دنو رفيق درى ما التمس) أن صاحبته كانت على غاية من الحسن والجمال، فقد كان على علم ودراية بمن هو مقدم عليه، لذلك كان دنوه إليه في رفق وحنان ولطف، دنو من يدري ويعلم بما تحت يديه من نعومة ملمس ورقة جنس وجمال منظر.

ثم يصور قدومه إلى محبوبته بهذه الصورة الفريدة التي حاز بها، ربما، قصب السبق في هذا الوصف الجميل، فقد شبه قدومه إلى محبوبته بصور في غاية من الدقة والجمال، حيث شبه القدوم والوصول بدبيب الكرى، وهو النوم والنعاس الذي يداهم صاحبه من غير أن يشعر، ليؤكد بهذه الصورة أنه كان ذكيًا في هذا التخفي والتستر. وما أن تغادرنا هذه الصورة حتى يبدهنا بصورة أجمل منها، وهي قوله: (وأسمو إليه سمو النفس)، فهذا التشبيه البليغ الذي أورده ابن شهيد، وقد حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه، أفصح فيه عن معاني كثيرة، اشتمل عليه هذا النوع من التشبيه.

ثم بين ما كان منه في تلك المغامرة مع حبيبه بقوله :(أقبّل منه بياض الطلى .....)، فدل على أنه قد عاش ليلته هانئًا تقبيلًا وارتشافًا من رحيق لماه، متطرقًا إلى وصف أماكن من الجسد، فيها كثير من الأوصاف الحسية المثيرة.

وذلك ما دفع كثيرًا من المؤرخين والنقاد إلى الإشادة بوصف ابن شهيد ودقة براعته في الوصف، فهذا المقّري يشبه اختلاس ابن شهيد للمعنى من امرئ القيس نتيجة جماله وإبداعه، "باختلاس النسيم لنفحة الأزهار، حيث استلبه بلطفٍ، استلاب ثغر الشمس لرضاب طل الأسحار، فلطفه تلطيفًا يمتزج بالأرواح، ويغني في الارتياح عن شراب الراح9، ونازع ابن شهيد امرأ القيس هذا المعنى أي منازعة، ولم يسلمه إليه كسائر الشعراء"10.

فابن شهيد حاور تشبيه امرئ القيس، فولد منه معاني أخرى عبر عنها بقوله : "ولما تملأ من سكره"، وفصل ووسع ما أجمله امرؤ القيس، وولد معاني إضافية إلى المعنى الأصلي تتصل بسياق الغزل والسكر، ونوم الحرس، ودنو الشاعر إلى المحبوب، ودبيبه إليه الذي يشبه دبيب الكرى، وسموه إليه الذي يشبه سمو النفس. كما أن ابن شهيد أخرج المعنى في قالب إيقاعي مختلف، عاملًا بفكرته النقدية التي أشار إليها بقوله: "إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه، وأرق حاشيته، فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بد ففي غير العروض الذي تقدم إليها ذلك المحسن؛ لتنشط طبيعتك، وتقوى منتك"11. فإذا كان ابن شهيد حاور الصورة التشبيهية النواة، من خلال وسائل تناصية فقد حاول إخفاء مكوناتها12، وهي نصيحة عرفها المشارقة، فحاول ابن شهيد أخذ ذلك المعنى متعظًا بنصيحة الشيخ، وهذا يدل على انشغال بال ابن شهيد بوضع قاعدة مقبولة للأخذ13.

ونلاحظ الفرق بين صورة امرئ القيس وصورة ابن شهيد واضحًا، وهذا الفرق جاء نابعًا من البيئة التي عاشها الشاعران . فالشاعر الجاهلي كانت حياته البادية، بكل ما كان فيها من شظف العيش وعادات وتقاليد قبلية، وما كان يعترض هذه القبائل من حرب وسلام، إذ إن هذا الشعر هو التعبير عن وجه حضارتهم والمحدث الوحيد عن تاريخهم وأيامهم. فجاء الشعر الجاهلي تعبيرًا صادقًا عن حياة البادية . وعندما قدر لهذا الأدب أن يتخطى بيئته، خطا الأدب العربي في الأندلس عبر صوره وفي شكله ومضمونه خطوات بعيدة عما كان في بيئته الشرقية أو الصحراوية، وهذا التطور لم يكن وليد صدفة، فجاء شعر ابن شهيد ابن بيئته، التي كان فيها الرخاء، والطبيعة الخضراء، والمرأة الجميلة، وقد رأينا هذه البيئة تبدو واضحة من خلال أبيات ابن شهيد التي وصف فيها قدومه إلى محبوبته، ووصف حاله، بأنه سكران، وله حرس يحرسونه، وفيه من الجمال الشيء الكثير.

لقد ذكر ابن شهيد المقطوعة كلها، على الرغم من أن الأخذ لم يتحقق إلا في البيت الثالث، وهو قوله: "أدب إليه دبيب الكرى" وهو في هذا الصدد يشير إلى قضية مهمة، وهي حسن الأخذ وقبحه14.

ويمكننا ملاحظة تميز ابن شهيد على من سبقوه في شعره بما يلي:

أولا: من حيث المعنى:

أن محبوبة ابن شهيد متحررة غنية مدللة تعاقر الراح، وتنام متى شاءت، لها حراس يحرسونها، لا ينامون حتى تنام. وهذا فارق اجتماعي حاول ابن شهيد الإشارة إليه ليدلل على ما كانت المرأة الأندلسية تتحلى به من انفتاح وتحضر وتحرر من القيود.

أن محبوبته قريبة منه، وهذه رواية قد تكون هي الصحيحة في البيت الثاني فيكون المراد بالقرب هو القرب المعنوي وليس الحسي، فهو قد دنا واقترب من محبوبته، وقام إليها وهو قريب منها، وإن كان هناك مسافة جغرافية تفصلها عنه واقعًا وحسًا، فهو دان منها روحا ومشاعر وإحساسا وعاطفة وحبا، فهو من شدة تعلقه بها وتفكيره فيها وقربها من قلبه يكاد يلامسها ويعاينها ويشاهدها. وهو في هذه المبالغة من الإحساس والشعور ليس بدعا، فقد سبقه إلى مثل هذا في . باب آخر . امرؤ القيس في قوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها جبل عال

وعلى فرض صحة الرواية الثانية "دنوت إليه على بعده" يكون مراده: لقد اقتربت منها، ووصلت إليها، على الرغم من بعد المسافة التي تفصلني عنها، فهناك حواجز وموانع كثيرة، جغرافية وبشرية ونفسية وأمنية، لكني اجتزت كل تلك الحواجز التي كانت تحول بيني وبينها، ومضيت إليها مطمئنًا في هيئة غير مسبوق إليها، والتي نجدها في قوله:

أدب إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سمو النفس

ثانيا: من حيث المبنى:

يشيع جرس الإيقاع في أبيات ابن شهيد بصورة واضحة، من خلال تكرار بعض الأصوات، كصوت السين المهموس، الذي تكرر في المقطوعة أحد عشر مرة، واستخدم هذا الصوت المهموس، ليتناسب مع حالة الذهاب إلى المحبوبة التي يصاحبها التخفي والتسلل والتستر من الرقباء غالبًا. ولا يخفى أيضًا ما في سكون القافية من دلالة على السكون والهدوء والكمون، والسكون ضد الحركة كما هو معروف بطبيعة الحال.

ثالثا:. من حيث بناء الصورة:

أما من حيث الصور فقد كان ابن شهيد أكثر انطلاقًا، وأخصب خيالًا، وأوسع أفقًا في عالم التصوير والخيال. فلو لم يكن لابن شهيد إلا هاتان الصورتان وهما قوله: "أدب إليه دبيب الكرى" و "أسمو إليه سمو النفس" لكانتا كافيتين بحيازته قصب السبق في هذه المنازلة التي نازل فيها المشارقة، في وصف حالة التخفي في القدوم إلى المحبوب، فهذان التشبيهان البلاغيان غاية في الوصف، ونلمح من خلالهما دقة الخفاء والتستر، فالإنسان عندما يغلبه النوم، لا يدري كيف غلبه، وعندما يجري النفس لا يدري كذلك كيف تحدث هذه العملية من شدة لطفها ودقتها.

ومما سبق نلاحظ شيئا يجمل الفرق الواضح بين صور التخفي عند المشارقة وصورته عند ابن شهيد، ويبين تغلبه وتفوقه عليهم في وصف التخفي شعريًا، وهو أن جميع صور المشارقة التي وصفوا بها تخفيهم كانت صورًا حسية مما يُرى ويُسمع ويُحس. فامرؤ القيس وصف تخفيه بصورة حباب الماء، وهو مما يمكن أن يشاهد أو يحس، فلفقاقيع الماء جرم يشاهد، ولحركتها متدافعة أصوات تسمع، وابن أبي ربيعة هو الآخر وصف تخفيه بصور حسية أيضًا، وكذلك فعل إسماعيل بن يسار. بينما صورة تخفي ابن شهيد كانت مما خفي ولطف ودق على الناس، فهي مما لا يرى ولا يسمع ولا يحس من قبل الآخرين. فكان تشبيهه القدوم على المحبوب بدبيب الكرى وبسمو النفس في الدلالة على شدة التخفي غاية ليس بعدها غاية.

وإذا كان من شيء يؤخذ على ابن شهيد في هذه الأبيات فهو أنه قد أربك التسلسل المنطقي للسرد، متناغمًا مع الحالة النفسية المرتبكة التي كان عليها هو لحظة التسلل وأثناءه، والتي كان عليها محبوبه المخمور المترقب لهذه الزيارة المحفوفة بالمخاطر. ويظهر هذا التشويش الزمني في قوله :

وبتُّ به ليلتي ناعماً إلى أن تبسمَّ ثغرُ الغلس

أقبلُ منه بياض الطُّلى وأرشفُ منه سواد اللَّعس!

فقد حدد لحظة الانقضاء الزمني لحادثة القدوم وعملية التسلل " إلى أن تبسم ثغر الغلس "، ثم رجع إلى وصف نوع الأحداث التي دارت في امتداد ذلك الزمن الليلي: (تقبيل بياض الطلى، ورشف سواد اللعس) .

ومهما يكن من شيء فقد خاض ابن شهيد مع المشارقة هذه التجربة الشعرية، المتمثلة في وصف هذه المغامرة الليلة، وهو على يقين بأنه الأفضل فنيًا، وأنه ما خاضها معهم إعجابًا ورغبة في المجاراة والمحاكاة والمتابعة لهم فحسب، وإنما كانت لديه دوافع وقصدية في هذه المنافسة والمغالبة، والرغبة في التفوق والتميز على نظرائه من المشارقة. وقد أورد هذه الأبيات في سياق منافسة قوية بينه وبينهم في وصف معان مختلفة مثل وصف الطير المصاحبة لجيش الممدوح، ووصف شدة العطش في الصحراء الملتهبة بحرارة الشمس، وفي كل ذلك

يشير صراحة إلى تفوقه وتميزه على كل من عرض شعره عليهم، مثبتًا أنه الأفضل في كل معنى طرقوه من المعاني التي أشار إليها في رسالته "التوابع والزوابع" .

وللتأكيد على ذلك نستمع إلى قوله: . بعد أن انتهى من منازلة شعرية أخرى مع الشعراء المشارقة في وصف الطير المصاحب لجيش الممدوح . "فاهتز المجلس لقوله، وعلموا صدقه. فقلت لزهير: من فاتك بن الصقعب؟ .... فهلا عرفتني شأنه منذ حين؟ إني لأرى نزعات كريمة، وقمت وجلست إليه جلسة المعظم له. فاستدار نحوي، مكرمًا لمكاني، فقلت: جد أرضنا . أعزك الله . بسحابك، وأمطرنا بعيون آدابك. قال: سل عما شئت . قلت: أي معنى سبقك إلى الإحسان فيه غيرك، فوجدته حين رمته صعبًا إلا عليك أنك نفذت فيه؟ قال: معنى قول الكندي: "سموت إليه ....." إلخ . قلت: أعزك الله، هو من العقم. ألا ترى عمر بن أبي ربيعة، وهو من أطبع الناس، حين رام الدنو منه والإلمام به، كيف افتضح في قوله: "ونفضت عني النوم ....." إلخ. قال صدقت، إنه أساء قسمة البيت، وأراد أن يلطف التوصل، فجاء مقبلًا بركن كركنه أزور. فأعجبني ذلك منه، وما زلت مقدمًا لهذا المعنى رجلًا ومؤخرًا عنه أخرى، حتى مررت بشيخ يعلم بُنيًا له صناعة الشعر، وهو يقول له: إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه، وأرق حاشيته فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن، لتنشط طبيعتك، وتقوى منتك. ..... وابن أبي ربيعة لو ركب غير عروضه لخلص. فقلت أنا: "ولما تملأ من سكره....." إلخ . فقمت وقبلت على رأسه، وقلت: لله در أبيك!"15 .

هذه التجربة الشعرية التي مر بها ابن شهيد، وهو يعالج معنى شعريًا، وصفه بأنه من المعاني العقم، وتهيب الدنو منه، وظل يؤرقه ويقدم له رجلًا ويؤخر أخرى، تشبه هذه التجربة إلى حد كبير تجربة شعرية مرت بأبي تمام، وهو يقرأ شعرًا لأبي نواس، تعكس ذلك الصراع المحموم بين الشعراء، لا أقول على المعارضة بل على المغالبة، فقد "حكى بعض أصحاب أبي تمام، قال: استأذنت على أبي تمام، وكان لا يستتر عني، فأذن لي، فدخلت عليه، فإذا هو في بيت مصهرج قد غسل بالماء، يتقلب يمينًا وشمالًا، فقلت له: لقد بلغ بك الحر مبلغًا شديدًا، فقال: لا، ولكن غيره، ثم مكث لذلك ساعة، ثم قام كأنما أطلق من عقال، فقال: الآن وردت، ثم استمر وكتب شيئًا لا أعرفه، ثم قال: أتدري ما كنت فيه؟ قلت: كلا. قال: قول أبي نواس:

حذر امرئ نصرت يداه على العدى كالدهـر فيه شراسـة وليـان

أردت معناه، فشمس علي، حتى أمكنني الله منه، فصنعت :

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا فأنت لا شك فيك السهل والجبل"16.

فقد تشابه الشاعران أبو تمام وابن شهيد في اللحظة الشعرية، التي استنفر لها كل منهما طاقاته الإبداعية، وتشابها في الأجواء النفسية من الهم والمعاناة، وهما يكابدان التفكير في المعنيين اللذين ألما بهما، وأرادا أن يستأثر كل منهما بمعناه دون سواه، واشتركا في إكبار ذلك المعنى والتهيب من الإقدام عليه. فقد رأينا في الحكاية السابقة كيف كان أبو تمام مهمومًا بمعنى أبي نواس، وكيف بلغ منه الجهد مبلغه، وكيف صعب عليه ذلك المعنى، ومازال في ذلك الحال من المعاناة حتى تمكن منه وظفر به، والأمر نفسه رأيناه عند ابن شهيد، فقد ذكر ابن شهيد أن معنى بيت امرئ القيس من المعاني العقم، وقد افتضح كثير من الشعراء حين أرادوا الدنو منه والإلمام به، مثل شاعر متخصص في الغزل وهو ابن أبي ربيعة.

فإذا كان أبو تمام قد اعترته لحظة حضور كلي في حضرة ثلاثة نصوص على الأقل، هي حضرة نص الكتابة (الشعرية) السابق في الوجود، وفي حضرة نص السياق الاجتماعي أو التاريخي الجديد، ممثلًا في نص الممدوح، وفي حضرة النص الذي لم ينجز بعد بصورة نهائية17، فإن ابن شهيد الأندلسي قد اعترته هذه الحالة من حيث ما ألم به من هم معنى النص السابق في الوجود على نصه الذي لم ينجز بعد، وأحس بصعوبة مجاراة ذلك المعنى الذي وصف بأنه من المعاني العقم، وأن خوضه ضرب من المغامرة، ولا يريد لنفسه أن يقع فيما وقع فيه سابقوه من الشعراء، فتكون لغة كتابته الشعرية أداة نقل وإبلاغ، لا مادة خلق وإبداع. فلذلك قدم ابن شهيد لنفسه أمام سائله بأن خوض غمار

هذا المعنى وبالصورة التي صاغها أمير الشعراء امرؤ القيس ضرب من المغامرة غير المحسوبة، وهو بذلك يمهد لجعل السامع يستبعد أن يأتي ابن شهيد بشيء يجاري به تلك القامات. في الوقت الذي كان هو يرسل شياطين شعره ويشرق بهم ويغرب في عالم فكره وحواسه ووجدانه، ويبحث عن صياغة يقدم بها ذلك المعنى في صورة أعمق وأدق وأبلغ ممن سبقه من الشعراء.

وإذا كان أمام أبي تمام ممدوح ينتظر أن يسمع من شاعره شيئًا كبيرًا يليق بالمادح والممدوح، فإن أمام ابن شهيد شيئًا أكبر قدرًا وأعظم خطرًا، وهو الرغبة القوية في تحقيق إحراز التفوق على المشارقة، وهو الهدف الاستراتيجي من هذه المواجهة التي عزم ابن شهيد عليها، ليثبت لأبناء أفقه المستهينين به، أنه فتاهم الذي لا تلين قناته، وشاعرهم الذي لا تحمل شاعريته، وأنه الأجدر بأخذ اللقب في هذه المواجهة مع المشارقة.

خاتمة البحث:

وبعد هذا الاستعراض التحليلي المقارناتي للنصوص الشعرية المشرقية والأندلسية نستطيع القول بأن ابن شهيد الأندلسي قد حقق ما أراد الوصول إليه من هذه المواجهة الفنية والمنازلة الشعرية بينه وبين المشارقة، واستهدف بذلك أمرين: الأول فني، والثاني ثقافي حضاري، أما الفني فقد رأيناه في الدراسة التحليلية للنصوص الشعرية التي بدا فيها ابن شهيد متفوقًا على شعراء المشرق حسب ما رآه الباحث. وأما الحضاري الثقافي فربما كان هو الدافع الحقيقي إلى هذا الإصرار من ابن شهيد في مواجهة المشارقة، وتجشيم نفسه عناء هذه الرحلة الشاقة إلى عقر دارهم عبر رحلته التخييلية المسماة بالتوابع والزوابع، والتقى فيها كبار الشعراء والخطباء كاسرًا بذلك فكرة النموذج المثال للمشارقة الذي لا يغلب ولا يقهر. وهي نظرة ظلت سائدة في ذاكرة الوعي الجمعي طوال قرون من الزمان، أراد ابن شهيد من خلال هذا العمل إبطال تلك الفكرة متضامنًا مع المعري في قوله:

إني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

الهوامش:

[1] - ديوان امرئ القيس، تحقيق حسن السندوبي، الاستقامة، القاهرة، ط5، ص161.

[2] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، 143/2

[3] - ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار صادر، بيروت، 1966م، ص123.

[4]- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م، 174/4م.

[5] - الجَوْزاءُ: من بُرُوج السماء، والمِرْزَمُ: كوكب نَيِّرٌ يقال له الشعرى، يَطْلُعُ بعد الجَوْزاءِ وطلوعه في شدّة الحرّ . انظر: لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، 2003م،(ج و ز) و (ش ع ر).

[6] - انْسابَ إذا خرَج من مَكْمَنِه، والْأَرْقَمُ: أَخْبَثُ الحَيَّاتِ، وأطلبُها للنَّاسِ، أو ما فيه سوادٌ وبياضٌ، أو ذَكَرُ الحَيَّاتِ. انظر: اللسان، (س ي ب) و القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مكتبة الرسالة، اشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، 2005م، (ر ق م).

[7] - هناك رواية(على قربه)؛ لأن الدنو لا يكون إلا للقريب. انظر: ديوان ابن شهيد، تحقيق محيي الدين ديب، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1997م، ص88.

[8] - نفسه، ص88.

[9]- نفح الطيب، 173/4.

[10]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، 158/1.

[11]- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1997م، ق1م1، ص 287/286.

[12]- التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، دراسة نظرية وتطبيقية، عبدالقادر بقشي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007م، ص99-100.

[13]- تاريخ ا لنقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط1، 1993م، ص 485.

[14] - انظر: ابن شهيد وجهوده في النقد الأدبي، تأليف عبد الله سالم المعطاني، دار المعارف، الأسكندرية، ص73.

[15]- الذخيرة: ق1 م1، ص286-287.

[16] - العمدة في محاسن الشعر ونقده،209/1.

[17]- انظر: في الطريق إلى النص، عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص116.

المراجع:

1. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط12، 1997م.
2. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، منجد مصطفى بهجت، جامعة الموصل، العراق، 1987م.
3. ابن شهيد وجهوده في النقد الأدبي، تأليف عبد الله سالم المعطاني، دار المعارف، الأسـكندرية.
4. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، 1993م.
5. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق محمد نبيل طريفي وأميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
6. ديوان ابن شهيد، تحقيق محيي الدين ديب، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1997م.
7. ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار صادر، بيروت، 1966م.
8. ديوان امريء القيس، تحقيق حسن السندوبي، الاستقامة، القاهرة، ط5.
9. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1997م.
10. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.
11. في الطريق إلى النص، عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
12. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت 817هـ)، تحقيق مكتبة تحقيق التراث، مكتبة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، 2005م.
13. لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، 2003م.
14. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م.
15. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م.